فى الأدب الانجليزى

بين الشبان والشيوخ

خطبة وليم بت [1] (١٧٠٨ — ١٧٧٨)

ردا على تعييره بصغر سنه

ترجمة وتعليق

بقلم محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفنى بها

تمهيد :

ليس اسم وليم بت الكبير - صاحب الخطبة التى نحن بسبيل ترجمتها - ولا اسم ابنه وليم بت الصغير ، بمجهول لقراء التاريخ الإنجليزى ، فقد كان كل منهما سياسيا خطيرا شغل وشغلته السياسة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر .

ولعل أهم ما يعنينا أن نعرفه عن بت الكبير فى مقامنا هذا أنه كان أديبا ، واسع الاطلاع على الأدبين العريقين : الأدب الاغريقى والأدب اللاتينى . وقد عين فى الجيش وهو فى سن العشرين ، ولكن خدمته فيه لم تطل ؛ فقد حدث فى سنة ١٧٣٤ أن أخاه الأكبر توماس بت انتخب عن دائرتين نيابيتين ، فاختار إحداهما ، واختارت الثانية أخاه وليم لينوب عنها فى « البرلمان » الإنجليزى . وما جلس فى كرسى النيابة حتى اتصل بشعبة « المتبرمين » ، وهى شعبة ضمت عدداً من الأعضاء المعارضين أطلقوا على أنفسهم اسم « الوطنية » ، وقد غذى حماسة هذه الشعبة ، وأذكى نار البغضاء فى قلوبها حب « والبول » « Walpole » الاستئثار بالسلطة المطلقة ولم يمض على بت زمن طويل حتى كان من قادتها

(1) William Pitt, Ist Earl of Chatham.

المفكرين ، وألسنتها الناطقة . فلقد كان موهوبا كل الصفات التى تكمل الخطيب كان أخاذا إذا اعتلى منبر الخطابة ، بهى الطلعة يميل بموقفه أحيانا ميلا مسرحيا وكان لعينيه بريق مغناطيسى يجتذب إليه سامعيه ، وكان له صوت مطواع يتصرف فى نبراته كيف يشاء . أما أسلوبه فكان أحيانا متحذلقا ، ولكنه كان دائما عاليا قويا جباراً ، كما كان آخذا بمجامع القلوب ، يفيض اقتناعا ، فيفيض إقناعا . ولقد كان فى مناضلاته السياسية أحد المعاول - بل أقوى المعاول - التى هدمت مجد «ولبول»

أما خطبته التى نترجمها هنا فقد رد بها على «ولبول» عندما ضاق هذا الوزير به ذرعا فعيره بصغر سنه ، وبأنه يلقى خطبا مسرحية . وهى تهمة كثيرا ما يلجأ اليها الضعفاء عند ما يخذلهم المنطق . كأنما يريدون ألا ينطق بالحق إلا من قوست ظهورهم السنون . وما أنا ممن ينكرون على السن تجربتها ، أو يجحدون الشيخوخة حكمتها - وأنا أكاد أقف على أسكفتها - ولكننى أقول كما قال ابن سينا إن من الناس من يجتاز حياته عرضا بدل أن يجتازها طولا . فهو يقطع من العمر نفس المساحة التى يقطعها أخوه - أستغفر الله ، أبوه أو جده - أو كما يقول رسو : «ليست الحياة أن تتنفس ، وإنما الحياة أن تعمل ، إنما الحياة أن نستخدم أعضاءنا وحواسنا ، وملكاتنا ، وكل ما منحنا لإشعارنا بالوجود . إن أطول الرجال عمراً ليس الرجل الذى مضى عليه أكثر عدد من السنين ، ولكنه الرجل الذى شعر بالحياة شعوراً دقيقا . » على أن من الخير أو من المجاملة ألا نطيل القول فى هذه النقطة . فلنعد إلى موضوعنا .

وليست هذه الخطبة أقوى خطب «بت» ولكنها مع ذلك أشهر خطبه وأدلها على قوة عارضته ، لأنه ارتجلها ارتجالا عند ما واجهه ولبول بتلك التهمة «الصغيرة» — لا ينقص من ذلك ما يقوله أحد النقاد من أن صموئل جنسن ربما أعمل فيها قلمه عند ما نقلها إلى صحيفته «Gentleman's Magazine» فان كل ما يستند اليه هذا الناقد هو أن جنسن كثيراً ما اعترف بأنه كان يعدل ويغير ، إن لم يخترع ، الخطب التى كان ينقلها عن النواب والأعيان . ونحن إذا صدقنا

جنسن فى دعواه لم نجد برهانا أقوى من الشك على أن خطبة بت كانت من الخطب التى يزعم جنسن أن قلمه قد نقحها . ويضعف هذا الشك ما عرف عن بت فى خطبه الأخرى التى تدل على منزلته الخطابية . على أننا لا نميل كثيراً إلى تصديق جنسن ، وهو الرجل المتكبر الفخور الذى يكاد لا يعترف لأحد بفضل(١)

* * *

الخطبة :

قال وليم بت موجها خطابه إلى رئيس المجلس ، وفق التقاليد البرلمانية الانجليزية

« سيدى ، إن هذه الجريمة النكراء التى تفضل السيد المحترم فى أدب جم فاتهمنى بها ـ جريمة أننى ما زلت شابا ، لن أحاول إنكارها أو الاعتذار منها ، ولكننى سأقنع بالأمل فى أن أكون أحد أولئك الذين تذهب حماقاتهم مع شبابهم ، بدل أن أكون أحد هذه الشرذمة التى يلازمها الجهل على الرغم من التجارب . أما أن يكون الشباب ذنبا يبكت عليه الرجال فأمر أرانى غير مختص بالفصل فيه ، غير أن من المحقق أن الشيخوخة قد تكون محتقرة حقا إذا هى أضاعت الفرص التى تصحبها من غير أن تغتنمها فى إصلاح صاحبها . فتتسيطر عليه الرذائل فى الوقت الذى تخمد فيه جذوة العواطف .

« إن ذلك التعس الذى يظل يرتكب الأخطاء بعد أن يرى عواقب ألف خطأ من أخطائه ، والذى لم تزد شيخوخته على أن أضافت إلى حماقته عناداً ، لجدير به أن يبوء بمقت الناس أو باحتقارهم ؛ وليس له أن يطمع فى أن يحميه بياض شعره من الإهانة .

« وأجدر منه بالمقت ذلك الرجل الذى تتقدم به سنه فتتقهقر فضائله ، وتزداد آثامه بنقصان مغرياته ؛ ذلك الرجل الذى يتجر بشرفه فى سبيل مال لا يستطيع أن يستمتع به ، ويقضى البقية الباقية من عمره فى تدمير أمته .

---

(١) راجع مقالنا عن جنسن ص ١٠٦ - ١١٠ فى العدد الأول ، من السنة الأولى من « صحيفة دار العلوم »

« ولكن الشباب — يا مولاى — ليس جريمتى الوحيدة ؛ فإننى قد اتهمت كذلك بأننى ألعب دورا مسرحيا . وهى تهمة ترمى إلى أحد غرضين : فإما أن لى فى أثناء خطابى لازمات من التلويح والإشارات ، وإما أننى أنافق ، فأخفى رياء ما تكنه نفسى ، وأنتحل من الآراء والعبارات ما ليس لى . فأما المعنى الأول — يا سيدى — فهو أقل من أن يفند ، ولا يستأهل أكثر من أن يذكر فينكر ؛ فإن لى من الحرية ما لكل إنسان ، فى أن أنطق بلغتى الخاصة ، وأن أعبر بأسلوبى الشخصى ؛ وربما كان من لازماتى أننى طموح ، ولكن ليهنأ السيد ، فإننى لن أكبل نفسى بأى قيد من القيود ، ولن أتهالك على اقتباس أسلوبه ، ولا احتذاء موقفه ، مهما تكن السنون قد أنضجتهما ، والتجارب قد كملتهما .

« وأما إذا حدثت امرأ نفسه بأن يتهمنى بأننى أنطق بغير وحى ضميرى فليعلم أنه مفتر أثيم ، ولن يحميه حصن مما سأنزله به من الجزاء . فإننى لن أتأثم حينئذ فى اقتحام تلك الحصون التى يتحصن بها ذوو الثروة والجاه . ولن يهون من حنقى إلا الشيخوخة ، الشيخوخة التى تثمر دائما ثمرة واحدة : هى أن يكون صاحبها سفيها صلفا ، من غير أن يناله عقاب سفاهته وصلفه .

« إن هؤلاء الذين قد أغضبتهم — يا سيدى — كان فى قدرتى أن أنجو من لومهم لو أننى لعبت دورا مسرحيا استعرت فيه رأيا غير رأيى ، ونطقت فيه بغير لسانى ؛ إن الحرارة التى آذتهم هى حرارة العقيدة ، وحمية التفانى فى خدمة بلادى ، مما لن ينجح فى تحويلى عنه خوف أو رجاء . ألا إننى لن أجلس غير مكترث وأنا أستمع إلى من يعتدى على حريتى ، ولن أشهد معقود اللسان ، السرقات العامة . وسأغامر ماشاءت المغامرة فى صد الظالم ؛ وسأقتاد اللص إلى ساحة العدالة ، مهما يكن ظهيره فى نذالته ، ومهما يكن شريكه فى سرقته » .

مهدى علام